الفصل التاسع

فى أن التملق والخضوع وبسط أعذار الناس والمبالغة فى الاعتذار إليهم وإظهار حبهم ومناصحتهم من أحسن أحوال المفلوكين وأليق الصفات بهم وأفضاها إلى مقاصدهم وبيان الدليل على ذلك

اعلم أن الناس لا يبذلون منافعهم وأموالهم سدى بغير عرض ولا علة لأن المتعالى عن وجوب تعليل أفعاله بالأغراض والمصالح إنما هو الله تعالى وإن خالفت المعتزلة فى ذلك فلابد للإحسان أعم من أن يكون نفعًا أو مالاً قولا أو فعلاً من غرض وحظ هو عند الباذل أوفى بما بذله وتحصيله عنده أحب إليه من ذلك المبذول فكما أن الشخص لا يلقى ماله فى البحر إذ لا غرض له فيه كذلك لا يضع ماله فى يد إنسان ولا غرض له فيه وذلك الغرض إما آجل وهو جزيل الثواب فى الآخرة قال ﷺ: «أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر الله له» وإما عاجل فى الدنيا وهو إما ترقب المكافأة بإحسان مثله نوعًا أو جنسًا أو المنة والترفع أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب القلوب إلى طاعته ومحبته واستخسارهم أو إزالة مذمة البخل وخبثه والنفرة الحاصلة للبخلاء واستقباحهم عنه أو إزاحة حب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة عن قلبه أو إزاحة رقة الجنسية ورحمة النوعية عن قلبه ودفع الألم الحاصل له من الرقة بسبب سوء حال من يحسن إليه أو دفع ألم خوف حاضر أو مترقب. والاستقراء يدل على الحصر. ثم إن بعض هذه الأغراض أقوى من بعض وبعضها أدوم وأشد بيانًا من بعض فالإحسان بالوارد الأخروى قليل الثبوت والاستمرار إلا من وفقه الله تعالى وأيضًا فأعمال الخير تتقارض وينوب بعضها عن بعض والأعمال البدنية أسهل على النفوس فى تحصيل مطلوب الآخرة من الأعمال المالية وبتقدير ثبوتها فإنما

يثبت جنسها وأما انحصارها فى مفلوك بعينه فأقل ثبوتًا بل لو قيل بعدم ثبوتها فى مفلوك بعينه البتة لم يكن بعيداً فلا يفيد المفلوك التعويل عليها. وأما حب المنة والترفع فليس شاملا إمامة الخلق ولا لمعظمهم لأن النفوس المستشرفة للمكارم والمعالى تأباه وتنفر عنه وإنما ذلك غالبًا ممن يصد عنه الإحسان تكرمًا وتطبعًا وتكلفًا لا طبعًا فهو من فساد جوهر الإنسانية وقولنا لا يكون غالبًا لأن الكلام فيمن يصدر منه الإحسان لا فى مطلق الإنسان فلا يجمل بالمفلوك جعله رأس ماله لأنه حينئذ يكون قد رضى بأقل الناس عدداً وأفسدهم جوهراً. وأما حب ثالثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم فذلك يقتضى وضع المكارم فى الناس على البدل والنوبة وتعميم العطاء للنظير والأعلى والأدنى ويكتفى من الواحد بالشخص بالمرة والمرتين والثلاثة لأن الغرض إقامة الحجة وبسط المعذرة فلا يحسن أيضًا بمفلوك التعلق بمحسن هذا غرضه لأنه ماذا عسى أن يحصل من المرة والمرتين ولأن العطاء العام قد لا يصادفه لأن الاستدلال بالأعم على الأخص ممتنع. وأما جذب القلوب إلى الطاعة والمحبة والاستخسار فهو أيضًا مما لا يوصل مفلوكًا إلى غاية ولا إلى مطلب يؤبه له وقصاراه أن يوصله إلى مبادئ الخير لأن الغرض إقامة الحجة عليه واستعباده وذلك يحصل بأدنى مرتبة يمكن استعباد مثله بها. وأما إزالة مذمة البخل ووضره ونفرته فلا يختص بإفاضة الإحسان على المفاليك بل قد يحصل بتنعيم النفس وظهار بزتها وزينتها وبالبسط على العيال وضيافة النظير أو المساوى فى المنزلة. وأما إزاحة رقة الجنسية فتستدعى حالا غير مرضية تستنزل بها الرحمة زيادة على الفلاكة إذ الفلاكة الدائمة تعتاد وتؤلف فيضعف كونها طريقًا للرحمة وتلك الحال الزائدة تربو على الإحسان مرارها أضعافًا مضاعفة ثم إن رقة الجنسية من أمور الآخرة وفيه من البحث ما تقدم ولذلك كانت إزالة حب

الدنيا عن القلب من أمور الآخرة وفيه من البحث ما تقدم - وإذن تقرر أن الناس لا يبذلون منافعهم وأموالهم بغير غرض بل لابد لهم من غرض إما عاجل أو آجل والمفلوك تمنعه الفلاكة عن المكافأة على الإحسان بإحسان مثله وتمنعه أيضًا من الإخافة والأمور التى مرجعها الآخرة لا تبقى ويكتفى ببعض أعمال الخير البدنية عنها وغيرها لا يخص مفلوكا بعينه ولا يوصله إلى غاية يؤبه لها ثم إن ما سوى رقة الجنسية أمور راجعة إلى الباذل وحده فلابد فى المفلوك من تحريك بواعث الناس بأمر يرجع نفعه إليهم ويكون وصفًا للمفلوك نفسه ويدخل تحت قدرته دائمًا لتبقى داعية الإحسان متحركة دائمًا لا تسكن لقدرة المفلوك على تحريكها كل وقت - فبخضوعه وتملقه تظهر سيادتهم وعزهم ويؤمن كبر المفلوك عليهم وتيهه وصلفه بإسعافهم بمراده وببسط أعذارهم يأمنون حقده فيعاودون الإحسان إليه وإن سلقوه إساءة وأذى لأن الإساءة طبيعية للبشر للقوة الغضبية ولما أن فى القلب ميلاً للأخلاق السبعية ولأن فى النفوس محاكاة فى الشر ولأن دخول الشر تحت القدرة أكثر من دخول الخير كالصداقة والعداوة والبناء والهدم والمفلوك مظنة للإساءة إليه لوجود المقتضى وانتفاء المانع فلابد أن تعمل الطبيعة فيه عملها ولا دواء لهذا الداء إلا بسط الأعذار قال أبو الحوائر الواسطى:

دع الناس طرًا واصرف الود عنهم ... إذا كنت فى أخلاقهم لا تسامح

فشيئان معدومان فى الأرض درهم ... حلال وخل فى الحقيقة ناصح

وقال بشار بن برد:

إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ... ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وبالمبالغة فى الاعتذار إليهم يتجاوز عن تقصيره وقصوره وعجزه اللوازم للفلاكة لأن للأغنياء شوافع من غناهم عن ذنوبهم قد تغنيهم عن الاعتذار

بخلاف المفاليك وبإظهار حبهم ومناصحتهم يجدون فيه روحًا ونفعًا راجعًا إليهم فيكون إسعافهم له بمراده من لوازم سيادتهم وراجع بالآخرة إليهم ولكون هذه الأمور أكثر إفضاء بالمفاليك إلى مقاصدهم تجد الأسافل ترتفع على الأعالى كثيراً لأن نفوس الأدنياء لا تأنف من الخضوع والتملق بخلاف الأعالى وقلما تخلو دولة من ذلك والسبب فيه أن الدولة إذا اقترضت تجد الأسافل ترتفع على الأعالى كثيراً لأن نفوس الأدنياء لا تأنف من الخضوع والتملق بخلاف الأعالى وقلما تخلو دولة من ذلك والسبب فيه أن الدولة إذا انقرضت وجاءت دولة أخرى فأصحاب الدولة الأولى يكونون فى نهاية سعادتهم ففيهم شمم وأنفة ومطالبة لصاحب الدولة الجديدة بحقوق لم يعطوه عليها ثمنًا بل هى مما أوجبها خدمتهم فى الدولة الأولى والوقت سيف والحكم للوقت ولصاحب الدولة الجديدة نصحاء ومتملقون وإن سفلت بهم المرتبة وسياسة الملك تقتضى تقديم من فى تقديمه نظامه وأبهته لا جرم ترتفع الأسافل على الأعالى كثيراً - اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك يا خالق الأسباب والمسببات والدواعى والبواعث والعزمات لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا وأشهدنا عظيم رحمتك حتى لا نرجوا أحداً سواك وتجل علينا ببالغ قدرتك حتى لا نخا أحداً غيرك اللهم إنك تعلم أن الخضوع لغيرك والتملق لسواك فوق صبرى وقاطع لظهرى لا يبلغه وسعى ويضيق عنه ذرعى فأغننى بك عما سواك يا رب العالمين آمين آمين.